

مؤسسة الحريم في البلاط العثماني (الجذور التاريخية والاجتماعية)

The Harem Foundation at the Ottoman Court (historical and social roots)

الدكتورة/ فاطمة الزهراء قديحي

باحثة في تاريخ المرأة الشرقية، ظاهرة الحريم في المجتمع الإسلامي، مملكة البحرين.

Email: Fatima.kdihi@gmail.com

رقم التواصل: 0097366373353

الملخص:

على الرغم من وجود عدد من المهتمين بشؤون المرأة الشرقية من أدباء وشعراء ومؤرخين وتركيز معظم كتاباتهم على الدور الاجتماعي والثقافي للمرأة، إلا أننا نادرًا ما نجد أحداً من هؤلاء الكتاب من تناول تأثير المرأة الشرقية ودورها التاريخي والسياسي في الأحداث التاريخية، من هنا فإننا نسلط الضوء على قضايا لم تحظ بالاهتمام الكافي من طرف المؤرخين والمهتمين بعالم المرأة، بالرغم من كونهن فتحن أبواب مسرح السياسة بالقوة، ولعبن أدواراً مهمة وناجحة في التاريخ لا يمكن تجاهلها.

لذا يبدو أنه من الصعوبة بمكان، بناء صورة مكتملة عن المسار السياسي للمرأة العربية والمسلمة دون استحضار كافة أبعاد التحولات الاجتماعية والسياسية الكبرى التي عرفها التاريخ الإسلامي في مختلف مراحلها، حيث ارتبطت ظاهرة الحريم ارتباطاً وثيقاً بظواهر كانت بدورها متأصلة في المجتمعات الإسلامية، وبالتالي لا يمكن فهمها دون الحديث عن تلك الظواهر التي كان لها دور مهم في نشوئه واستمراره لقرون عديدة، ومثلت الأساس النظري والشرعي لشيوعه خصوصاً ظاهرة الرق، ونظام التسري وملك اليمين، وظاهرة الحجاب بالإضافة إلى نظام تعدد الزوجات، من هذا المنطلق حاولت هذه الدراسة تفكيك مؤسسة الحريم والتعمق في الأسباب التاريخية والدينية والاجتماعية التي ساهمت في ظهوره بالمجتمع العربي والإسلامي.

كلمات مفتاحية: الحريم، تاريخ المرأة، الرق في الإسلام، تعدد الزوجات، نساء السلطان، الحجاب، التسري، ملك اليمين.

The Harem Foundation at the Ottoman Court (historical and social roots)

Abstract:

Although there are a number of writers, poets and historians who are interested in the affairs of Eastern women and focus most of their writings on the social and cultural role of women, we rarely find any of these writers to address the influence of Eastern women and their historical and political role in historical events. Hence, we highlight issues that have not received sufficient attention from historians and those interested in the world of women, despite the fact that they have opened the doors of the political scene by force and have played important and successful roles in history that cannot be ignored.

So it seems that it is very difficult to build a complete picture of the political path of Arab and Muslim women without conjuring up all the dimensions of the major social and political transformations that Islamic history has known at various stages, where the harem phenomenon was closely linked to phenomena that were in turn inherent in Islamic societies, and therefore can't be understood without talking about those phenomena historical and religious reasons The social issues that contributed to his emergence in the Arab and Islamic community.

Keywords: the harem, the history of women, slavery in Islam, polygamy, the women of the Sultan, the veil, concealment, the king of the right.

المقدمة

حظي موضوع المرأة في المجتمعات الإسلامية باهتمام بالغ من طرف المؤلفين والباحثين من مختلف المشارب العلمية والأدبية، خصوصا فيما يتعلق بوضعيتها الاجتماعية والقانونية، من أبرزها كتب الحركة النسائية التي أسهمت إسهاما واضحا في تسليط الضوء على الأدوار المختلفة للمرأة، والسير بوضعيتها نحو التحرر والمساواة، لكن عملها النضالي لم يمتد بعد للكشف عن الدور الحضاري والتاريخي السياسي للمرأة العربية والمسلمة، لأن أغلبها اعتمد على نماذج مستوردة من نضال المرأة في الغرب الرأسمالي، وجعلها تكسب المرأة الشرقية تلك النظرة السلبية عن تاريخها المثقل بتقاليد وعادات عرقلت مسيرتها التحررية، وماض حملته أقلام النساء المعاصرات الوضعية المتدنية التي تعيشها المرأة في المجتمعات الإسلامية اليوم.

إذ عانت منذ قرون عديدة من مختلف أنواع الحيف والظلم، فقد تعرضت للرق والتسري، وبيعت كسلعة رخيصة في أسواق النخاسة، كما سجنّت داخل جدران البيوت والقصور كشيء يقتنى ويمتلك لا حول له ولا قوة، الأمر الذي جعل أغلب الباحثين يصعب عليهم تتبع مسار المرأة في المجتمعات الإسلامية، خصوصا المرأة داخل بلاط الحكام والسلاطين.

إن حقل دراسات المرأة العربية والمسلمة له أهميته الأساسية، ليس من منظور القضايا المعاصرة فحسب، بل أيضا من المنظور التاريخي، فالبحث في تاريخ المرأة ليس ترفا فكريا، أو مدخلا من مداخل التاريخ العام، وليس هجوما أنثويا على الفكر الذكوري أو دفاعا عن هوية مغتصبة، وإنما هو اهتمام ينصب في عمق المشروع الإصلاح العام، الذي يهدف إلى إعادة صياغة تاريخ عربي إسلامي يلتزم الاعتراف بأدوار كل العناصر البشرية التي ساهمت في تكوينه، فكل فرد من أفراد المجتمع ساهم بشكل أو بآخر في إنتاج تاريخ مشترك، فتهميش أي منهم، معناه إنتاج تاريخ غير متكامل منتج لحقائق مغلوبة وبالتالي إنتاج مفاهيم مشوهة.

وللأسف، فقد كانت فئة النساء من أكثر الفئات الاجتماعية تهميشا في التاريخ الإنساني عامة، والعربي والإسلامي خاصة، من هنا وجب طرح بعض التساؤلات المشروعة من قبيل ما الذي يضيفه البحث في تاريخ النساء، خصوصا نساء السلاطين أو ما يطلق عليه باسم "الحريم السلطاني" أكثر النساء تهميشا على الرغم من الدور الهام الذي لعبه في تسيير الدول الإسلامية.

إشكالية الدراسة:

بداية، يعد موضوع الحريم من الموضوعات الصعبة في تاريخ الدولة الإسلامية نظرا لقلّة المادة العلمية عنه، إذ كان جناح الحريم السلطاني بكافة ساكنته يكتنفه الغموض و السرية، لدرجة صعب على أغلب المؤرخين والمهتمين المعاصرين له من النفاذ إليه ومعرفة أسرارهِ،⁽¹⁾

وقد كان مبعث اهتمامي بدراسة الحريم السلطاني، ما رسمته أقلام الكتاب والأدباء وما جادت به قرائح الشعراء في مختلف العصور الإسلامية من صور متناقضة عن قيمة المرأة كإنسان، وعن دورها في تسيير الشأن العام، فتارة تجدها لديهم جبارة ماكرة وسياسية محنكة، وتارة تجدهم يصورونها حقيرة ذليلة ومتاعا من متاع البيت، أو هدفا للمتعة وإنجاب الأولاد. وزاد من حدة هذا التناقض ما جاءت به السيناريوهات السينمائية من تزكية لهذه النظرة المتناقضة عن النساء في المجتمعات العربية والإسلامية، وخاصة اللواتي ينتمين إلى النخبة أو الطبقة الحاكمة لأنها تتطلب تحديدا دقيقا للمعلومات التاريخية.

وكما ذكرنا سابقا، فإن تاريخ المرأة العربية والمسلمة عموما وتاريخها السياسي خصوصا، لم يحظ بنصيب مهم من اهتمام المؤرخين المسلمين، على الرغم من مشاركة المرأة للرجل في أحداث التاريخ الإنساني والنتائج المترتبة عنها، وعلى الرغم من ندرة الكتابات حول هذا الموضوع، فإن ما تم كتابته يتواجد متناثرا في بطون الكتب والمصادر، وهي إحدى الإشكالات التي تعترض البحث في هذا الموضوع، فدراسة تاريخ نساء السلاطين في البلاد الإسلامية معناه التطرق إلى قضايا جديدة والبحث عن مصادر غير تقليدية، وهذا المنظور يفتح أمامنا آفاقا جديدة تؤدي بدورها إلى فهم أعمق لدراسة موضوعية للنساء كمجموعة مهمشة في التاريخ الرسمي بشكل عام.

من هنا وجب الأخذ بعين الاعتبار هذا المعطى المنهجي لدراسة موضوعية لهذا البحث، والالتزام ببعض الشروط العلمية كالتحرر من الأوهام والقوالب الجاهزة، سواء من طرف الغربيين المهووسين بسحر الشرق وبالاستيهامات المستوحاة من روايات "ألف ليلة وليلة"، أو من طرف المسلمين الذين أداروا ظهورهم وأهملوا إلى حد ما ذكر سيرة المرأة عند تدوين التاريخ العام للدولة، ماعدا بعض الاستثناءات، لكنها لم تكن كافية لكتابة أو تتبع مسار حياتهن، وفي كلتا الحالتين هناك إساءة غير مقصودة لكنها قد تعكس مفاهيم مغلوطة عن المرأة، بالإضافة إلى ضرورة استحضار عنصر الانتماء لثقافة المرأة من أجل فهم الظروف التاريخية وإدراك الحقائق.

1- عبد العزيز محمد الشناوي، الدولة العثمانية دولة مفترى عليها، مكتبة الأنجلو المصرية، ج: 1980، ص: 559

أهداف الدراسة:

تسعى هذه الدراسة إذن للوقوف على الظروف التي ساهمت في ظهور هذه الظاهرة الفريدة في المجتمع العربي والإسلامي، ورصد أسبابها وظروفها العامة، بالإضافة إلى الإحاطة بإطارها التاريخي والديني والاجتماعي والثقافي، إضافة إلى اعتبار موضوع الحريم هو بمثابة عنصر أو مدخل من مداخل فهم تاريخ الدولة الإسلامية بما فيها من تنوع وتركيب وتعقيد، دون الوقوع فريسة الأحكام الاستثنائية الغير المنطقية، من خلال الاستعانة ببدائل معاصرة ذات مناهج جديدة لدراسة الشرق خصوصا الدولة العثمانية في المركز.

حيث نلاحظ أن مفهوم الحريم قد تأثر بالإطار التعصبي الديني المسيحي من جهة، وبالإطار التعصبي الثقافي والتاريخي للمسلمين من جهة ثانية، فالحريم كان أداة تخدم النظرة التحقيرية للغرب إلى المجتمع الشرقي، حيث اعتبره مؤرخوه ومستشرقوه كقفص ذهبي تسحب داخله الحرية الإنسانية.

منهجية الدراسة:

يعتبر البحث عن جذور ظاهرة الحريم في المجتمع الإسلامي، مهما لأنه يسلط الضوء على ظواهر اجتماعية أخرى ساهمت في تغذية مؤسسة الحريم وضمان استمرارها لقرون عديدة، كالحجاب وتعدد الزوجات والتسري وملك اليمين، ومن الواضح أن نظام الحريم كمؤسسة لها نظامها وقوانينها المعروفة وأعدادها الغفيرة بقصور الحكام والسلاطين لم يكن شائعا في البدايات الأولى لقيام الدولة العثمانية. فقد كان السلاطين الأوائل كمراد الأول (1362-1389) وبايزيد الثاني (1481-1512) ومحمد الثاني (1444-1446) وسليم الأول (1512-1520) السلاطين ومنشغلين بتثبيت وإرساء دعائم إمارتهم من خلال الحروب والمعارك، وتأسيس دولتهم بعيدا عن اللهو والانغماس في الترف والبذخ،⁽²⁾ فهؤلاء لم يعرفوا نظام الحريم بل بالأحرى لم يرغبوا فيه.⁽³⁾

يبدو أن هناك عوامل عديدة غدت نظام الحريم وساهمت في ظهوره ثم إلى استمراره، فإمكانية تعدد الزوجات وامتلاك الجواري أدى إلى خلق أماكن مخصصة لكل امرأة، كما أن كثرتهم تستدعي ضرورة حمايتهم من العالم الخارجي، فتم جلب رجال أقوى لكن أخصاء لتوفير حماية كاملة ومضمونة، بالإضافة إلى توفير مكان آمن من خلال هندسة معمارية صارمة.

2

3- PENZER, (N.M.), The Harem. An Account of the Institution as it Existed in the Palace of the Turkish Sultans with a History of the Grand Seraglio from its Foundation to the Present times. Philadelphia, 193, p:15.

لذلك ارتأينا اعتماد محاولة تفكيك العناصر المكونة لمؤسسة الحريم من خلال طرح أسئلة بسيطة للغاية من قبيل:

-كيف تكون الحريم في المجتمعات الإسلامية؟

-على أي أساس بنيت مشروعية الحريم في الفكر الإسلامي؟

-ماهي العوامل التي أدت إلى نشوئه وساهمت في استمراره؟

أولاً: الرق والتسري

لا يختلف اثنان على أن الرق واقع تاريخي ضارب بجذوره عمق المجتمعات البشرية والحضارات الإنسانية، لازم لها في شتى مراحل تطورها الإنساني والحضاري ارتبط في نشأته وتطوره بعوامل اقتصادية واجتماعية وسياسية (4)، وكانت له تداعيات وآثار وخيمة عليها، فقد انقسمت المجتمعات القديمة إلى طبقتين: أغلبية ويمثلها فئة الرقيق وهم عامة الشعب الذين يعيشون حياة الفقر والحرمان، وأقلية ويمثلها فئة الأسياد وهي التي تنعم في حياة البذخ والترف (5)

ومع ظهور الإسلام كان أمام ظاهرة متأصلة في عمق المجتمع وواقعا اجتماعيا معاشا في تلك الفترة، كما واجه تقاليد شائعة في الحرب فطبقا لعادات القدماء كان أسير الحرب يفقد حقه في الحياة بمجرد وقوعه في الأسر ولم يكن استرقاقه إلا رحمة به وتخفيفا لحكم الموت الذي استحقه لهزيمته (6).

فقد حلت الفتوحات الإسلامية مقام الغزوات في الحصول على الرقيق والسبايا، ومع ازدياد النصر للمسلمين في غزواتهم كثر الرقيق في صدر الإسلام وتزايد عدد الجوارى، ووجدن في بيوت العامة والخاصة من الناس (7).

فأبقى الإسلام على النظام القائم، ودعا إلى تضييق منابعه وحصره في مصدر واحد وهو: رق الحرب الشرعية (8). فأصل الاسترقاق في الإسلام هو الأسر أو السبي في جهاد المسلمين لبلاد الكفر وقد شرح علماء اللغة مفهوم الرق على أنه: الشيء الرقيق، نقيض الغليظ والثخين.

4- عبد الله ناصح علوان، نظام الرق في الإسلام، دار السلام، 2004، ص: 11.

5- ول ديورانت، قصة الحضارة، ج: 1 م: 1 ص: 37 الرق ص: 28.

6- محمود سلام زنتاني، النظم الاجتماعية والقانونية في المجتمعات البدائية والقبلية، وحقوق الإنسان في المجتمعات البدائية، الطبعة الثانية، القاهرة، ص: 25.

7- سهام عبد الوهاب الفريخ، الجوارى والشعر في العصر العباسي الأول. شركة الربيعان للنشر والتوزيع. ط1 -1981، ص: 1

8- المقصود هنا بالحرب الشرعية وهي أن تستوفي معايير منها أن يكون القتال في سبيل نشر الإسلام، أن لا يقاتلوا المسلمين حتى يعرضوا على أهل الكفر أمورا ثلاثة: الإسلام، الجزية، الحرب، وأثناء الحرب إن جنحوا إلى السلم عليهم باختيار السلم.

وإصطلاحاً: هو المَلِكُ والعبودية، أي نقيض العتق والحرية، والرقيق بمعنى العبد يطلق على المفرد والجمع، وعلى الذكر والأنثى أما العبد، فهو: الرقيق الذكر، ويقابله: الأمة للأنثى.

ومن الألفاظ الدالة على الرقيق الذكر لفظي: الفتى أو الغلام، وعلى الأنثى لفظي: الفتاة، والجارية، وبمعنى أوضح كل امرأة أسيرة في الحرب أو نقلت قسراً من دار الكفر على أن تكون غير مسلمة، أو التي تلدها أمة مملوكة وقد يتطور وضعها وترتقي إلى أم ولد.

إن وضعية الجارية القانونية خاضعة لضوابط فقهية فعلى سبيل المثال إن أنجبت فوضعيتها تتغير إلى أم ولد حيث لا يسمح لمالكها ببيعها أو تبادلها كما أن أبنائها يحملون نفس اللقب مثل باقي إخوانهم من أمهات أحرار،⁽⁹⁾ وبالتالي كان الإنجاب هو الفرصة الذهبية بالنسبة للجارية للوصول إلى مكاسب كبيرة، وهو الأمر الذي حرصت عليه فالإنجاب من السيد يجعل المرأة تحظى بوضعية اجتماعية وقانونية خاصة هذا ما يلاحظ في علاقة السلاطين بالجواري في البلاط فنفس القواعد كانت سارية، لهذا نلاحظ أن المرأة التي تدخل على القصر يكون هدفها هو الإنجاب لترتقي وهذا نجده لدى السلاطين العثمانيين حيث كانت المرأة تصبح " خاصكي سلطان " بمعنى أم ولد.

أما عند الفقهاء فقد عرفوه على أنه عجز حكمي يصيب من يقع في الأسر في الحرب الدائرة بين المسلمين وغير المسلمين، فيفقد أهليته القانونية ويصير مملوكاً لمن يؤول إليه، ويزول هذا العجز بالفداء أو العتق.

وأسبابه ثلاثة: أوله الأسر والسبي من الأعداء الكفار وثانيه، ولد الأمة من غير سيدها يتبع أمه في الرق أما ثالثه، فهو الشراء ممن يملك الرقيق ملكاً صحيحاً معترفاً به شرعاً.

ورث العثمانيون أنظمة الدولة الإسلامية بما في ذلك النظام الاجتماعي بل تمكنوا من خلق أنظمة جديدة منها نظام "الدقشرمه" الذي يخدم الحياة الإدارية والعسكرية لدى الدولة العثمانية، بالإضافة إلى شيوع الاسترقاق في الحياة الاجتماعية و اليومية للمسلمين حيث كان للرق سوقاً في إسطنبول يباع فيها الرقيق المجلوب من إفريقيا وأوروبا وبلاد القوقاز والمسئول عن عملية البيع والشراء كان يدعى "أسيرجيلر" اشتهر بمهارته في تصنيف الرقيق حسب مزايه الخلقية والخلقية، إلا أن الرقيق النسوي كان أكثر رواجاً من رقيق الذكور، حيث امتلأت بيوت أغنيائهم بالجواري والعبيد والغلمان والخصيان وصار جمال المرأة لا يقدر بثمن كما أن التجار الأتراك لا يبيعون إلا الفتيات الجميلات، وحتى الآباء أنفسهم لا يهدون بناتهم إلا إذا كن يتمتعن بصفات جمالية نادرة. وقبل أن يأسر هذا الجمال قلب السلطان فإنه قبل ذلك قد أثر على ثمن الفتاة في أسواق النخاسة بإستانبول، إذ يخضع إلى منطق تجاري يتمثل في أنه كلما ازداد جمال الجارية إلا وارتفع ثمنها، وإن كانت تعاني من نقص في شعرها أو قوامها فإن ذلك يقلل من ثمنها، أما إن لم تكن عذراء فإن الثمن ينقص بالنصف،

⁹ Annabelle D' HUART, Nadia TAZI, **Harems**, Hachette, 1980.p, 55.

وإذا كانت الجارية مرضعا ولها رضيع، فإن الطلب يزداد عليها⁽¹⁰⁾، ويتم شراؤها مع ابنها بثمن مرتفع، ويكون لهذه المرضعة وضع مميز باعتبارها أما بالرضاع لابن السيد وابنها أخا له،

وهكذا تحصل الجارية في بعض الحالات على امتيازات مهمة كهذه المرضعة، وتتم عملية الشراء بالسماح للمشتري برؤية صدر الجارية وذراعيها ورجليها إلى الركبتين، وفي بعض الحالات قد يرغب المشتري التأكد من عذرية الجارية فيرسل إليها عجوزا لتتولى مهمة معرفة ذلك، إذ لا يمكن لعملية البيع والشراء أن تتم بنجاح إلا بعد فحص الطبيب والمرأة العجوز.

وإذا كان أغلب الجوارى والإماء مسيحيات أو يهوديات فإن ذلك لا ينفي وجود بعض المسلمات ضمن الحريم، إذ يتم استرقاقهن سواء بالوراثة أو بالاقتناء⁽¹¹⁾.

وإذا كانت الجارية تتمتع بسلوك حسن، فهي تكافأ بزيجة من أحد الشخصيات المرموقة، ويقام له زفاف رائع، وقد يكون الاحتفال جماعيا حيث يختار السلطان مجموعة من الجوارى لتزويجهن في يوم واحد، وقد ترفض إحدى الجوارى عرض الزواج وتفضل البقاء في القصر، ولكن في الغالب تكون الجارية مطيعة لسيدها وتوافق على الزواج⁽¹²⁾.

من هنا كانت النظم التي جاء بها الإسلام لتحسين أحوال الرقيق والرفع من مكانتهم الاجتماعية، نساء ورجالا، من خلال الانعتاق من عبوديتهم والصعود في السلم الاجتماعي إلى حد الوصول إلى أرقى المناصب، على الرغم من ذلك فقد شاعت بخصوص علاقة المسلمين بعبدهم وإمائهم بعض التهم كسوء معاملتهم لهم وإجبارهم على التخلي عن عقيدتهم السابقة واعتناق الإسلام، وقد ساهم في إشاعة مثل هذه الأفكار بعض الأسرى المسيحيين داخل المجال الإسلامي، إلا أن هناك من المؤلفين الغربيين من يرفض مثل هذه التهم ويعترف بكل موضوعية أن الرق لدى العثمانيين والفرس والشرق عموما يختلف إطلاقا عما هو معروف عنهم بالمجتمعات الأوروبية⁽¹³⁾،

10- OLIVIER, (G.A), Voyage dans l'empire ottoman, L'Egypte et la Perse, fait par ordre du gouvernement, pendant les six premières années de la République, Paris, (1801-1807).p.191.

11- AFETINAN, (A.), L'Emancipation de la femme Turque, Unesco, 1962.p.37.

12- صوفيا لين بول، حريم محمد على باشا، رسائل من القاهرة (1842-1846)، ترجمة ودراسة: د.عزة كرامة، ط:2، 2000.ص:148

13- HANOUM, Leila, Le Harem impérial et les sultanes au XIX, traduit par RAZI (Y), Préf : de BASH (S), Bruxelles, ed. Complexe, 1991, p.50.

- DURANT LA BARONNE, fontmagne de, un Séjour à l'ambassade du France à Constantinople sous le second empire, Paris, 1902, p.289.

والدليل على ذلك أن أغلبهم يفضلون اقتناء العبيد وهم في سن صغيرة ويتم إدماجهم في إطار الأسرة العثمانية المسلمة، وعندما يشيب العبد ذكراً أو أنثى يجد نفسه مسلماً بالسليقة ومخلصاً للأتراك⁽¹⁴⁾.

وتذكر إحدى الرحالة الإنجليز وهي صوفيا لين بول: "إن الرق في الشرق ليس كما تتخيلينه، ربما يكون العبد هنا تحت سيطرة سيده، بدرجة أكبر من الغرب، ولكن بصفة عامة نجد أن العبد الشرقي يعامل بمنتهى الحلم والتسامح وكثيرون ممن انتزعوا بقسوة من آبائهم في سن مبكرة، يجدون في المشتريين آباء وأمهات، يعطفون عليهم، ويتمتعون بدرجة عالية من الألفة والدلال على الأسرة تبعت على الدهشة"⁽¹⁵⁾ حيث عادة ما كانت النساء يسمح لهن بالانعتاق والخروج من القصر وذلك طلباً للأجر والثواب كما يسمح لهن بحق العودة إلى القصر في أي وقت يشأن حيث يظل ارتباطهن بالسراي سارياً مما قد يؤدي أحياناً إلى الطامحين إلى السلطة ومحبي الوصول إلى مراكز القرار بالتقرب منهن⁽¹⁶⁾ والزواج بهن خصوصاً في المراحل المتأخرة من عهد الدولة العثمانية حين أصبح أغلب وقت السلاطين يقضونه في أجنحة الحريم مما سهل على نساء الحريم التأثير في القرارات الصادرة باسم السلطان.

اتخذ الرق الذكوري في الدولة العثمانية أوجهاً مختلفة حيث تم استعماله في الخدمة الداخلية والخارجية، كجنود محاربين حيث "أسس العثمانيون جيش الانكشارية وهم عبارة عن أسرى الحرب ويتم قطع أية علاقة بين عائلاتهم وإخضاعهم لتربية صارمة وتدريبهم على فنون الحرب والقتال ولما توقف مورد الأسرى من الحروب أصبح الشراء هو الحل من خلال فرض ضريبة على البلدان المفتوحة بتقديم كل سنة عدد معين من الفتيان لتجنيدهم في الجيش العثماني وأول سلطان أسس هذا الجيش هو السلطان و يعد هذا الجيش من بين الأسباب التي أدت إلى امتداد الدولة وتوسعها.

واجهت الدولة العثمانية، طيلة فترة حكمها التي دامت ستة قرون (1299-1922)، مشاكل عديدة، كان لها أثرها الواضح في نظام حكمها. إذ كان عليها وهي في بداية عهدها ترسيخ قوتها،

وتثبيت نفوذها، أن تواجه الأخطار الخارجية المحيطة بكيان دولتها الفتية. غير أنها وجدت نفسها في خضم مشاكل داخلية خطيرة تمثلت بالفتن، والتنافس ما بين أبناء وأخوة السلاطين طمعاً في عرش السلطنة، فكان ذلك الأمر مدعاة لأضعاف نفوذ سلاطينها في الداخل، وابتعادهم عن هدفهم في التوسع والضم خارج حدود السلطنة.

14- OLIVIER, (G.A), Voyage dans l'empire ottoman, L'Égypte et la Perse, fait par ordre du gouvernement, pendant les six premières années de la République, Paris, (1801-1807), P.17.

- AFETINAN, (A), Op. Cit., p.37.

15- صوفيا لين بول، حريم محمد علي باشا، رسائل من القاهرة (1842-1846)، مرجع سابق، ص:146.

16- هاملتون جيب، هارولد بوين، المجتمع الإسلامي والغرب وأثر الحضارة الغربية في الفكر الإسلامي في الشرق الأدنى، ترجمة، عبد المجيد حسيب القيسي، الجزء الأول، المجتمع الإسلامي في القرن الثامن عشر، دار المدى للثقافة والنشر، 1997. ص: 125.

وقد تعرض الكثير من أخوة وأبناء السلاطين إلى القتل أو الاستبعاد في قصور الجواري، كي ينفرد السلطان الجديد بالحكم. بل إن الأمر ازداد خطورة، مع ازدياد التناحر والصراع حول عرش السلطنة، الذي دفع ببعضهم إلى الدخول في اتفاقيات مع أعدائهم في الإمارات المجاورة لهم، أو مع الدول الأجنبية المحيطة بهم، لأجل الحصول على الدعم والمساندة للإطاحة ببعضهم البعض.

قانون قتل الإخوة كان هدف سياسة محمد الفاتح هو فرض العزلة بين السلطة والمجتمع و جاء هذا القانون لمنح للسلطان الحق في قتل الأمراء المنحدرين من السلالة العثمانية وذلك بالاتفاق مع السلطة الدينية والغرض من ذلك هو تقضيل المصلحة العليا للبلاد إلا أنه من الناحية الاجتماعية أدى هذا القانون إلى تفكيك الأسرة العثمانية⁽¹⁷⁾ حيث صار الفرع لاستقبال سلطان جديد يلزمه شعور بالخوف والرعب من قتل الإخوة الذكور خصوصاً نساء الحريم حيث كانت الأمهات يفعلن المستحيل من أجل تعيين أبنائهم على العرش وذلك تقادياً لتنفيذ حكم الإعدام المقنن و المشروع⁽¹⁸⁾ و على الرغم من استبدال هذا القانون بقانون أرحم منه وهو سجن الأمراء لكن كان من عيوبه تعيين حكام لم يتعلموا أسلوب الحكم من قتل الإخوة من نماذجه السلطان بايزيد الأول أو "الصاعقة" الذي استهل حكمه بقتل أخيه يعقوب⁽¹⁹⁾ كما قتل السلطان محمد الفاتح أخاه الرضيع احمد كما قتل السلطان سليم الأول أبناء إخوته و أخيه كركود وأحمدكم قتل السلطان مراد الثالث خمس من إخوته وهم محمد وسليمان ومصطفى وجهانكير وعبد الله⁽²⁰⁾.

والحديث عن الرق يقودنا للحديث عن ملك اليمين باعتباره الأساس الشرعي الذي اعتمده المسلمون لتطعيم بيوتهم وقصورهم بأعداد لا تحصى من الجواري والإماء.

كما لا يمكن فهم العلاقة التي جمعت السلطان بجواريه دون استيعاب القاعدة الدينية التي اعتمدها السلاطين لتبرير مواقفهم فملك اليمين في كتب الفقه فقد تم تعريفه على أنهم الأرقاء المملوكون عبيداً -ذكوراً كانوا أو إناثاً- ولا فرق أن يكون المالك لهم رجلاً أو امرأة، وذلك استناداً لما جاء في القرآن الكريم حيث يقول الله تعالى:

" يا أيها النبي إنا أحلنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتي هاجرن معك وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها

17- حسن الضيفة، الدولة العثمانية، الثقافة، والمجتمع، والسلطة، دار المنتخب العربي، الطبعة الأولى، 1997، ص: 76.

18- برنارد لويس، استنابول وحضارة الامبراطورية العثمانية، ترجمة: سيد رضوان علي، دار الكتب، بيروت، (د.ت)، ص: 55.

19- نزار، قازان، سلاطين بنى عثمان بين قتال الإخوة وفتنة الإنكشارية، دار الفكر اللبناني، الطبعة الأولى، 1996.

20- نفسه.

خالصة لك من دون المؤمنين قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيمنهم لكيلا يكون عليك حرج وكان الله غفورا رحيما⁽²¹⁾.

وقال أيضا: "وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ"⁽²²⁾

أما التسري فهو ملك السيد للجارية، حيث يسمح للمالك بوطء أمته بعقد الملكية وهذا العقد هو الحد الفاصل بين الوطء المحرم وهو الزنا وبين الوطء الحلال⁽²³⁾، حيث انه لا يشترط العدل بين مملوكاته.

والجارية في الشريعة الإسلامية هي كل امرأة أسرت في الحرب أو نقلت قسرا من البلاد الغير الإسلامية بشرط أن تكون غير مسلمة أو التي تشتري من أسواق النخاسة أو التي أنجبت من أم أمة وأب مملوك،⁽²⁴⁾ وبناء عليه يجوز له وطؤها بملك اليمين، والتسري لا يقع إلا على من ثبت عليه الرق.

ولا خلاف في إباحة التسري ووطء الإماء، لقول الله تعالى: " والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمنهم فإنهم غير ملومين "⁽²⁵⁾

لكن الاستمتاع بالإماء، لم يتم إلا بقواعد منظمة للتسري حيث كان الأساس الديني بمثابة الأساس النظري إذ حرص الشرع على وضع قواعد لتنظيم التسري بالإماء بما عرف بكتب الأصول الشخصية للرفيق، قصد المحافظة على الأخلاق العامة من جهة وعلى حقوق الطرفين الشخصية حيث لا يسمح للمالك أن يتسرى بجارية غيره،

وليس له وطء جارية لا يملك إلا خدمتها أو سبق أن أعتقها كما لا يجوز له الاشتراك مع غيره في وطء جارية⁽²⁶⁾ كما لا يمكنه الجمع بين الأختين أو الأم وابنتها أو وطء أمته المتزوجة⁽²⁷⁾ غير أن فقهاء العصور الإسلامية لم يصدروا فتاويهم بالتحديد العددي للاستمتاع بالإماء، فكان الرجل يجمع بين نسائه الأربع وبين عدد لا يحصى من الإماء⁽²⁸⁾.

21- سورة الأحزاب، الآية: 50

22- سورة النساء، الآية: 36

23- توفيق بن عامر، الحضارة الإسلامية وتجارة الرقيق خلال القرنين 3 و 4هـ ص: 131

24- عبد العزيز، الشناوي، الدولة العثمانية دولة مفترى عليها ص: 576

25- ابن قدامة، المغني، الجزء: 10، ص: 410.

26- توفيق بن عامر، الحضارة الإسلامية وتجارة الرقيق خلال القرنين 3 و 4هـ ص: 132

27- نفسه، ص: 132

28- عبد السلام، الترماني، الزواج عند الغرب في الجاهلية والإسلام، دراسة مقارنة، في عالم المعرفة، أغسطس، 1984. ص: 214

ومن جهة ثانية فقد تم تصنيف الجوّاري حسب اعتقادهم الديني و تم الاتفاق على جواز الاستمتاع: بالجوّاري المسلمات (29) إذا لم يكن هناك صلة الرحم، والجوّاري الكتابيات قياساً على نكاح الكتابية الحرة، في حين حرم الاستمتاع بالجوّاري الغير الكتابيات(30)، والحديث حول قواعد نظام التسري يطول إلا أن أهم شروطه يبدو أن المسلمين قد احترموها، إلا أنهم بالغوا في اقتناء الجوّاري وصارت عادة طبعت المجتمع الإسلامي منذ فترات الفتوحات الإسلامية وامتدت إلى بداية القرن العشرين مع سن قانون إلغاء الرق.

تطور مفهوم التسري عند المسلمين حتى اعتبروا كل النساء إماء، وحرّموا المرأة المسلمة من حقوقها التي شرعها الإسلام كالتعليم والمشاركة في الحياة العامة، واعتبرت عورة وبالغوا في تضيق الحصار عليها فحبسوها داخل سجن الحريم لا يحل رؤيتها أو التعامل معها إلا بواسطة مالكتها وقد أخذ السلاطين و الحكام بحكم الفقهاء وبالغوا في اقتناء الجوّاري، إلى أن ارتفعت مكانتهن على حساب الحرائر.(31)

والأمراء والأثرياء بحكم الفقهاء وتأسوا بهم بتزيد وإسراف وارتفع مقام الإمام فحظين بالحب والترف من الرجال وانحط مقام الحرائر فوقرن في البيوت وحرمن من العلم، واشتد هذا الأمر خلال العهدين الأموي والعباسي حين كثرت الفتوحات، التي تم تعويضها فيما بعد بالشراء من الأسواق، أو بالخطف، أو بالإهداء،

وصار التباهي بامتلاك أكبر عدد من الجوّاري من رموز القوة والمكانة الاجتماعية حتى فاق عدد الإمام عدد الحرائر بل وكان الرجل يفضل الجارية عن الحرة وأشهر الخلفاء العباسيين الذي اشتهر باقتناء الجوّاري هارون الرشيد حيث كان معظم أبنائه من الإمام.(32)

ثانياً: الحجاب

الحجاب عادة شرقية جد قديمة حيث تم إقرارها وشيوعها في مختلف الحضارات والثقافات،(33) بظهور الإسلام، خاصة بين نساء الطبقة الغنية (34)، لقد اقتبس العرب الحجاب من الفرس، كما قلّد العرب البيزنطيون في تقسيم البيت إلى ركن خاص بالنساء وركن خاص بالرجال المقتبسة من الإغريق،

29 - توفيق بن عامر، الحضارة الإسلامية وتجارة الرقيق خلال القرنين 3 و 4هـ ص: 132

30 - نفسه، ص: 132

31- عبد السلام، الترماني، الزواج عند الغرب في الجاهلية والإسلام، دراسة مقارنة، مرجع سابق، ص: 214

32 - عبد العزيز، الشناوي، الدولة العثمانية دولة مفترى عليها، مرجع سابق ص: 577

33- أيوب، أبودية، الحجاب في التاريخ، مراجعة لغوية، صفوان البخاري، دار الفارابي ط1، 2012

34- RED. "Harem", in Encyclopédie de l'Islam, Nouvelle édition, T. III. p.214.

وبمجيء الإسلام قنن هذه العادة بآيات قرآنية حتى اعتبره بعض المؤلفين أنه أحد المفاهيم الأساسية لمفاتيح الحضارة الإسلامية⁽³⁵⁾ حيث نزلت آيات الحجاب على الرسول عليه الصلاة والسلام في السنة الخامسة من الهجرة، واعتبرت الأساس الديني لشرعة الحجاب، وقد اختلفت تفسيرات الفقهاء والمفسرين وتأويلاتهم في مفهوم الحجاب من ناحية الشكل والمضمون.

آيات الحجاب ثلاثة: واحدة في سورة الأحزاب "يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزُوجِكُمْ وَبَنَاتِكُمْ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ، ذَلِكَ أَذْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا"⁽³⁶⁾ وهي أسبق نزولاً، ويقول المفسرون لتفسيرها إن بعض نساء النبي والصحابة قد تعرضن لتحرشات الرجال الجالسين على الطرقات عند خروجهن لقضاء حاجتهن، فشكون ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم، أما الآيتين ففي سورة النور فنزلتا أكثر تعميماً لمخاطبة المؤمنين والمؤمنات، فقال تعالى: "قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ. وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا، وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يُضْرَبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ"⁽³⁷⁾

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظُّهْرِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ⁽⁵⁸⁾ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ⁽⁵⁹⁾ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ⁽³⁸⁾

لقد تجاوز حدود الحجاب في صدر الإسلام من الستر إلى حجب المرأة ومنعها من مغادرة مكان إقامتها، ثم تطور إلى عزل المرأة عن الحياة العامة ومنع الاختلاط بين الجنسين وجاء الفصل في السكن.

35- فاطمة المرنيسي، الحريم السياسي، النبي والنساء، ترجمة عبد الهادي عباس، دار الحصاد، ط:2، 1993.ص:121.

36 - سورة الأحزاب، الآية:59

37 - سورة النور، الآية،30-31.

38- سورة النور، 58

يبدو أن العهد الأموي هو بداية تدشين فرض الحجاب حيث طبقه أولاً على نساء الخلفاء من طرف الخليفة الأموي الوليد الثاني⁽³⁹⁾، ثم قلدهم نساء كبار الموظفين،⁽⁴⁰⁾ أما في العهد العباسي فقد عمم ليشمل كافة النساء الحرائر وصار تقليدا اجتماعيا راسخا في المجتمع العباسي دون استثناء امرأة من فئاته.

وقد سمح كل من الثراء والسلطة بامتلاك الجواري والخدم والخصيان، فارتفعت أعداد الجواري والإماء في العهد العباسي وصار التحجب ميزة النساء الحرائر،⁽⁴¹⁾ من هنا تم تضيق الخناق على المرأة وحوصرت في المكان الذي يطلق عليه "الحرملك" أي مكان سكن الحرير وساهم فيما بعد إلى منع خروجها منه إلا للضرورة القصوى.⁽⁴²⁾ استنادا لمقولات الفقهاء المتشددين الذين رسخوا تقاليد بالمجتمعات الإسلامية وتلاحمت مع الدين وصعب التمييز ما بين ما هو ديني وبين ما هو ثقافي. لقد تركزت مواقف خطيرة اتجاه حياة المرأة، ففي العهد الأموي وفي مناخ ساد فيه الترف والمجون صار خروج المرأة ونوع لباسها دليل على دونيتها الاجتماعية⁽⁴³⁾ فخضعت لأحكام فقهية صارمة قننت حرية الحجاب.⁽⁴⁴⁾

على الرغم ما يلاحظ أن هذا الوضع يتناقض مع دور المرأة في العهد الأول للإسلام خصوصا إذا استحضرننا نموذج عائشة ومشاركتها في حروب الفتنة، فقد ظلت النساء يسمح لهن المشاركة إلى عهد الدولة العباسية حيث منع القائد العباسي أبو مسلم الخراساني خروج النساء مع الجند⁽⁴⁵⁾.

وعلى غرار العهد الأموي والعباسي سار سلاطين الإمبراطورية العثمانية والدولة المغربية على نفس الدرب ومنعوا اختلاط الجنسين في السكن داخل القصر السلطاني، واستمروا في فرض الحجاب وعزل النساء داخل البيوت، ومنعهن من الخروج والمشاركة في الحياة العامة، وتم التشدد خصوصا في ما يخص نساء السلاطين، الذين صاروا في عزلة تامة عن العالم الخارجي، إلا القلائل اللواتي سمحن لهن بالخروج خصوصا الأميرات المنحدرات من السلالة الحاكمة⁽⁴⁶⁾، وعليه فإذا كانت نساء الحرير ممنوعات من تجاوز أبواب القصر، فإن دخول الأجناب إليه كان من باب المستحيل⁽⁴⁷⁾.

39- حسين العودات، المرأة العربية في الدين والسياسة، (عرض تاريخي) ط:1، 1996. ص:102.

40- باسمة كمال، تطور المرأة عبر التاريخ، مؤسسة عز الدين، 1981، ص:112.

41- حسين العودات، المرأة العربية في الدين والسياسة، (عرض تاريخي) ط:1، 1996. ص:108.

42- أيوب، أبودية، الحجاب في التاريخ، مراجعة لغوية، صفوان البخاري، دار الفارابي ط، 2012، ص1، ص، 15.

43- حسين العودات، مرجع سابق، ص:108.

44- باسمة كمال، تطور المرأة عبر التاريخ، مرجع سابق، ص:115.

45- محمود سلام زنتي، قصة السفور والنقاب، ص 74.

46- Chardans, Jean-Louis, Les Harems, Pygmalion, Paris, 1979.p : 56.

47 -Ibid., 57.

لقد احترم العثمانيون ظواهر اجتماعية شاعت بالمجتمعات الإسلامية عموماً، خصوصاً ظاهرة حجب وعزل النساء في قصور السلاطين، (48) إذ لم يكن يسمح للنساء داخل جناح الحريم بالخروج من القصر إلا في مناسبات نادرة، كمرافقة السلطان في نزاهاته، (49) أما إن أردن التنزه بمفردهن فيلزمهن أخذ موافقة السلطان شخصياً، وإن كان الرد بالإيجاب فيكون الخروج مشروطاً بأهمه الحراسة المشددة وطريقة اللباس.

كان لباس النساء العثمانيات الخارجي عبارة عن غطاء للرأس يحجب الوجه والعينين، يطلق عليه بالياشمق وكان في بداية الأمر تلبسته فقط نساء السراي، ثم اقتبسه فيما بعد نساء الموظفين الكبار نظراً لاحتكاكهم بنساء القصر من وقت لآخر، ثم صار يلبس فقط في المناسبات الرسمية ثم عمم عند باقي النساء في العالم الإسلامي (50)، مصنوع من الموسلين الناعم أو الشفاف، ويتكون من قطعتين تغطي القطعة الأولى الأنف والذقن أو العنق وتسدل حتى الصدر، معقودة برباطين وراء الرأس أو العنق، أما القطعة الثانية فتلتف حول الجسم من الرأس حتى القدمين،

وبما أن هذا الحجاب شفاف فإن تقاطيع جسم المرأة تظهر من خلاله، ومن المهم ألا يبدو أنف المرأة لأنه إن ظهر فإنه يرمز إلى كون المرأة إما عاهرة أو أرمينية.

وأوسع أنواع الحجاب انتشاراً ما يسمى بمهرماه "Muhramah" ويتكون من قماش قطني، جزؤه الأعلى يحيط بالرأس ويثبت بالذقن، بينما يغطي الوجه كلياً منديل أسود. وأخيراً بقي ما يسمى بـ فرجه "Ferece" وهو عبارة عن معطف طويل بأكمام طويلة (51)، تلبسه جميع النساء في الشارع، مصنوع من الحرير، بالنسبة للأغنياء يكون لونه عادة قرمزياً أو وردياً أو أسوداً. وعلى ظهر هذا المعطف تنسدل قبعة مربعة طويلة أما أطرافه فتكون مصنوعة من المخمل (52).

واللباس الخارجي يعمم على كافة النساء، سواء نساء القصر أو نساء المجتمع العثماني، بما في ذلك نساء الولايات التابعة للدولة العثمانية فقد كانت نساء مصر العثمانية لا يختلفن كثيراً عن مثيلاتها في المركز، فقد كان لباسها المخصص للخروج يراعي شروط الحشمة والحياء وستر كافة أعضاء جسد المرأة وقد وصفته لنا إحدى الرحالة النسوة زوجة السفير البريطاني جون بول بمصر بإسهاب وامتعاض واضح وتدعى صوفيا لين بول في كتابها "حريم محمد علي" إثر وصولها لمصر اضطرت إلى تغيير لباسها الإفرنجي باللباس المحلي حيث تقول "وعند وصولنا اضطرت أنا وزوجة أخي أن نرتدي الملابس الشرقية، وجدنا هذا التبديل صعباً للغاية،

48- عبد العزيز محمد الشناوي، الدولة العثمانية دولة مقترى عليها، مرجع سابق، ص: 561.

49- Chardans, Jean-Louis, op.cit., p: 56.

50- AFETINAN, (A). Op. Cit., p.35.

51- THEVENOT, (J. Relation d'un Voyage fait au Levant, Barbin, Paris, p.106.

52- PENZER, (N.M.), Op. Cit., pp.171-173.

وعند إتمامه شعرنا باختناق لا يمكن أن ننسأه تخيلي أن الوجه يسدل عليه بإحكام خمار من الموسلين المزدوج في الجزء الأعلى منه، ولا يظهر سوى العينين، وفوق رداء حريري ملون غطاء من الحرير الأسود، يحيطني من كل جهة كنت مكبلتة تماما باستثناء عيني...

ويطبق القانون على الجميع دون استثناء، حيث تم إصدار مراسيم تخص توجيه طريقة لباس النساء وإدخال بعض التعديلات على شكل معطف الخروج "Ferece"؛ فمرسوم "988" يمنع النساء من المرور قرب موكب يوجد به الرجال، ومرسوم "991" يمنعهن من الدخول إلى بعض المتاجر، ومرسوم "1138" يمنعهن من الدخول إلى أماكن التسلية، ومرسوم "1165" يمنعهن من ارتداء المعطف ذو القماش الخفيف، وأيضا تعليقها في واجهات المتاجر، ومرسوم "1206" يحدد خروج النساء في أربع مرات في الأسبوع، ومرسوم آخر أصدره السلطان عثمان الثالث (1754-1757) يقضي بحرمان المرأة من الخروج إلى الشارع برفقة رجل أيا كانت علاقته بها أو التجول بالعربة أو زيارة بعض أماكن المدينة، كما منع مرسوم "1278" لباس المعطف الضيق.

كانت النساء أحيانا تخرج عن تطبيق مثل هذه القوانين، وتمارس نوعا من الحرية، خاصة في العهد المعروف بعهد لاله دوري "Lale Devri" (53) "L'Ere des tulipes" "عهد الزنايق" وخلال النصف الثاني من القرن 18م، كانت النساء يرتدين المعطف "Ferece" بألوان فاتحة في المناسبات والأعياد(54).

فالحجاب كان بمثابة آلية لتنظيم الغريزة الجنسية وتعزيزها بالفصل المكاني. (55) كما يذكر الطبيب لامبريير أنه عندما يخرج السلطان محمد بن عبد الله ويرافقه بعض من نسائه محجبات ومراقبات من طرف الحراس والخصيان حيث يمنع عليهم الاقتراب منهن كما يمنع على أي شخص المرور بجوارهن.

ثالثا- تعدد الزوجات

كان نظام تعدد الزوجات شائعا في شبه الجزيرة العربية. وبمجيء الإسلام أباح التعدد وحدده بشروط، منها ألا يتجاوز أربع نساء وتحقيق العدل والمساواة بين الزوجات ويكون العدل في حقوق المعاشرة الجنسية، في الإنفاق، والمعاملة،

53- MONTAGU (M.W.), *L'Islam au péril des femmes, une anglaise en Turquie au XVIIIesiècle*, Introduction, traduction et notes de Marie MOULIN et Pierre CHUVIN, éditeur François MASIERO, la découverte, Paris, 1981.p.21.

54- AFETINAN, (A), Op. Cit., p.35.

55- فاطمة المرنيسي، ترجمة نهلة، بيضون، هل أنتم محصنون ضد الحريم؟، نشر الفنك، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، 2000، ص: 158.

ويحظر التعدد إذا خشي الزوج ألا يعدل لقوله تعالى في سورة النساء، الآية: 3: "وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع، فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة، أو ما ملكت أيمنكم، ذلك أدنى ألا تعولوا".

إلا أن شرط العدل من الشروط الصعب تحقيقها استنادا للآية الكريمة: "ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم، فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة، وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفورا رحيما".

إنه فهو نظام مشروع للضرورة وليس لتحقيق المتعة وذلك استنادا لقول الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال: " لعن الله الذواقين والذواقات، قالوا: من هؤلاء يا رسول الله؟ قال: هم الذين يتزوجون رغبة في لذة النكاح." (56) كانت ظاهرة تعدد الزوجات من الظواهر التي لفتت انتباه أغلب الرحالة الأجانب الذين زاروا المجالين العثماني والمغربي وأثاروا حوله عدة تساؤلات جعلتهم ينعنون السلطان ب الرجل الشهواني والمستبد الأكبر حيث ذكر لامبرير في رحلته إلى البلاط المغربي بقوله " نادرا ما تجد للعرب أكثر من زوجة إذ يبدو أن العقل الغربي تقبل بصعوبة مثل هذه الظواهر الأمر الذي ساهم في صعوبة فهمها مما أدى إلى إنتاج استعارات شائعة في مختلف إنتاجاتهم من قبيل وصف المرأة "دمى متحركة" أو "أشباح" أو أكفان" أو "حزمة من الملابس الصوفية" أو "شيء لا شكل له" مفاهيم مغلوطة عن العالم الإسلامي تجاوزت حدود المرأة ومست جوانب أخرى من الحياة العامة للمسلمين.

ارتبط وجود النساء داخل جناح بالقصر السلطاني يطلق عليه مصطلح الحريم برغبتين اثنتين الأولى إشباع الرغبات الجنسية للسلطان وثانيها حفظ السلالة الحاكمة. إذ تعتبر الرغبة الأخيرة من أكثر ما يتشبه به السلاطين، حيث اعتبرت المرأة ذلك الوعاء الملكي للإنجاب خصوصا الذكور ليكون وليا للعهد وبذلك يضمن استمرارية الحكم لنفس أفراد الأسرة الحاكمة. (57) ونظرا لأهمية هذا الأمر في حياة السلاطين فقد طرحت مسألة كيفية اختيار المرأة التي تمنح للسلطان وريثة الحكم وحفظ السلالة من الاندثار، حيث اختلفت المعايير من أسرة لأخرى وكذا من عهد لآخر.

اختلفت المعايير حسب فترات قوة أو ضعف الدول الحاكمة فقد كان السلاطين الأوائل للدولة العثمانية يختارون نسائهم من البلدان المجاورة حيث من الضروري انتمائهم لأسرة حاكمة لضمان أمن الجوار خصوصا مع البلدان المتاخمة على الحدود هذا كزواج مراد الثاني من ابنة أمير صربيا سارا، أما في الفترة الثانية و توسع الدولة العثمانية لم يعد السلاطين يحتاجون لتأمين الجوار بل بالعكس أصبح الخوف هو من مصاهرة الحكام المجاورين خوفا من المطالبة بالحكم و استبدال الزواج باختيار النساء من الجوارى المجهولي الأصول لتفادي المشاكل السياسية على الرغم من وجود بعض الاستثناءات كزواج إبراهيم الأول من ابنة شيخ الإسلام.

56- باسمه كمال، تطور المرأة عبر التاريخ، مؤسسة عز الدين، 1981، ص:134.

57- حنفي المحلاوي، حريم ملوك مصر من محمد على إلى فاروق، دار الأمين، ط:1، 1993، ص:13.

لقد تبنى سلاطين الدولة العثمانية نظام تعدد الزوجات، واستفادوا من هذه الإباحة المشروطة،⁽⁵⁸⁾ حيث احترم بعضهم الشرط العددي خصوصاً السلاطين السبعة الأوائل⁽⁵⁹⁾ ابتداءً من السلطان عثمان الأول إلى غاية السلطان محمد الفاتح،⁽⁶⁰⁾ كما تزوجوا بعقود شرعية من بنات الأمراء والحكام المجاورين كالإمارات الأناضولية والبيزنطية وإمارات الصرب والبلغار، وكان الهدف من هذه الزيجات هو تركيز دعائم الدولة العثمانية الفتية،⁽⁶¹⁾ وإذا كان هؤلاء السلاطين قد التزموا بالشرط العددي فقد أغفلوا شرط العدل إذ كان لكل سيدة وضع خاص يميزها عن باقي نساء السلطان، فالمرأة التي تلد ابناً ذكراً تتمتع بمركز بالغ الأهمية وتتلقى منح تفوق مثيلاتها على أساس أنها أصبحت في مرتبة أم ولي العهد.⁽⁶²⁾ وإذا انتقلنا إلى سلاطين المرحلة الثانية وهم من السلطان محمد الفاتح إلى آخر سلطان في عهد الدولة العثمانية باستثناء اثنين من السلاطين وهما السلطانين سليمان القانوني الذي تزوج بجاريته روكسلان و عثمان الثاني وإبراهيم الأول⁽⁶³⁾ الذي تزوج بابنة شيخ الإسلام أما الباقيين فنجدهم قد تخلوا أولاً عن مبدأ الزواج واستبدلوه بنظام التسري فأصبح كل نسائهم من الجوّاري والمحضيات، وتخلوا عن العدد لكنهم اتبعوا مبدأ الاكتفاء⁽⁶⁴⁾ وقد اختلف المهتمون في العدد الحقيقي الذي وقف احترامه السلاطين في اتخاذ عدد محدد من النساء اللواتي كن بمثابة زوجات شرعيات وقد كن يطلق عليهن "قادين" كما لم يلتزموا بشرط العدل، وصارت علاقتهم مقننة بقوانين داخلية مرتبطة بالقانون السائد داخل السراي إلا أنه كان هناك استثناءات من السلاطين من تزوج بعقود نكاح وبنساء أحرار، ومنهم من اكتفى بزوجة واحدة، وأدى هذا العرف إلى امتلاء القصر بالجوّاري وأصبحت من ناحية سلعة رائجة في السوق العثماني، ومن جهة ثانية هدية ثمينة قد تحقق لصاحبها حسن العلاقة بالسلطان، حيث إذا رغب الأجانب و حكام الولايات وكبار موظفي الدولة نيل رضا السلطان فإن الهدية الثمينة هي جارية حسناء، والغريب في الأمر أنه قد نجد نساء يهين لسلطانهن جواري لتحقيق أغراضهن وأدى هذا التسابق لإرضاء السلطان بالهدايا من النساء،

بالإضافة إلى شرائهن من مناطق القوقاز والشركس إلى كثرة أعدادهن وبالتالي إلى كثرة أولادهن، ومن البديهي أن يحصل تنافر و تقشي مشاعر الضغينة و الحقد بين أولاد الأمهات من جهة وبين أمهات الأمراء من جهة ثانية،

58 عبد العزيز محمد الشناوي، الدولة العثمانية دولة مفترى عليها، مكتبة الأنجلو المصرية، ج:1، 1980، ص:563.

59-نفسه، ص:563.

60- وهم كالاتي: عثمان الأول، أورخان بن عثمان، مراد الأول، يزيد الأول، محمد الأول، مراد الثاني، مجمد الفاتح.

61- أكمل الدين إحسان أوغلي، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، مرجع سابق، ص:156.

62- عبد العزيز محمد الشناوي، الدولة العثمانية دولة مفترى عليها، مرجع سابق، ص:569.

63- خليل، إينالجيك، تاريخ الدولة العثمانية، من النشوء إلى الانحدار، ترجمة، محمد.م. الأرنؤوط، دار المدار الإسلامي الطبعة الأولى، 2002، ص:137.

64- هاملتون جيب، هارولد بوين، المجتمع الإسلامي والغرب وأثر الحضارة الغربية في الفكر الإسلامي في الشرق الأدنى، ترجمة، عبد المجيد حسيب

القيسي، الجزء الأول، المجتمع الإسلامي في القرن الثامن عشر، دار المدى للثقافة والنشر، 1997، ص:123.

وغالبا ما كانت ولاية العرش أحد الأسباب الرئيسية لهذا التناحر حيث يتولي أحد الأمراء هذه الولاية فمعناه ارتقاء والدته إلى مرتبة والدة السلطان وتصبح السيدة الأولى في الدولة.

ومن أخطر النتائج التي أفرزها هذا التكاثر في أعداد الأبناء ما يعرف بقانون قتل الإخوة واستبداله بقانون سجن الأمراء حيث أن كلا القانونين كانت له عواقب وخيمة على مسار الدولة العثمانية وسببا أساسيا في انهيارها، تمثل هذا الإجراء العرفي الذي سنه بايزيد الأول، وتحول على يد محمد الفاتح إلى قانون ثابت، ومفاد هذا القانون منح للسلطان المتولي للعرش تصفية الأمراء المنافسين حيث الهدف منها خدمة المصلحة العامة للبلاد .

وتم استبداله بقانون آخر قضى بالتخلي عن سياسة التصفية الجسدية والاكتفاء بسياسة سجن جميع الأمراء في جناح خاص داخل القصر ومنعهم من الخروج طوال حياتهم. وقد يسمح لأحد سجناء الأقفاص، بتولي السلطة مفتقدا لشروط شخصية الحاكم.

ما يلاحظ في هذه المرحلة هو غياب المرأة التام عن الحياة العامة والسبب لا يكمن فقط بطبيعة العقلية المسيطرة، بل أساسا بسبب صعوبة الحياة وكثرة الكوارث من حروب واجتياحات أجنبية وغزوات بدوية وقتن ومعارك داخلية وفيضانات كاسحة وطواعين مدمرة، كل هذه الأوضاع المضطربة والقاسية لم تكن تسمح الا بسيطرة الفحولة ومنطق القوة، فيتراجع منطق الأنوثة وتنزوي المرأة بعيدا خلف الرجل، لكن هذا الغياب يقتصر فقط عن الحياة العامة وليس عن دورها في التأثير على حياة من يحيطون بها، وهذا يعني أن المرأة تبقى فعالة وماسكة لزام الأمور ولكن ليس بصورة علنية بل من وراء حجاب، من خلال تأثيرها على الرجال من إختها وأبنائها وزوجها.

والملاحظ أن الغربيين رفضوا هذا النظام رفضا باتا، وقد جاءت كتاباتهم تعبير عن ذلك وقد عولجت بطريقة حادة جدا حتى عد مفهوم تعدد الزوجات يعبر بشكل تلقائي على مؤسسة الحريم، لكن هناك من رآه من الغربيين بشكل إيجابي وهو الكاهن الألماني يدعى "يوهان ليزر" ألف كتابا حول فضائل تعدد الزوجات لكنه قوبل بالرفض من قبل مجتمعه، وتم طرده من بلده لكنه أصر على أفكاره وألف بعد ثمان سنوات كتابا لنفس الموضوع، حيث أنه في تلك الفترة كان نظام تعدد الزوجات قد أصبح لصيقا بالمجتمع الإسلامي وخصوصا بالعقيدة الإسلامية والمعروف مدى العداء الذي كان بين المسيحية والإسلام وكان من يقوم بالدفاع عن أحد الأنظمة أو الظواهر بالمجتمع الإسلامي يعد خائنا وعدوا ومتحالفا مع المسلمين، خصوصا علاقة المسلم بالمرأة وإمكانية امتلاكه أكبر عدد من النساء سواء كزوجات أو كجوارى، وأمام هذا المنع كواقع وبين رغبة نفسية في الحريم،

الأمر الذي جعلت الرجل الغربي يطلق العنان لخياله ونسج صور استيهامية عن النساء قي المجتمع الإسلامي⁽⁶⁵⁾ وتعاضم انبهارهم بالشرق الذي اقترن بالمرأة داخل الحريم ومنهم من استطاع أن يملك الجوّاري كما هو الحال بالشاعر جيران دي نرفال الذي اشترى جارية بمصر وروى إحساس رجل شرقي يملك جارية⁽⁶⁶⁾.

كان الإلغاء الرسمي للحريم عام 1909 منعطفًا حاسمًا في تاريخ الدول الإسلامية عموماً والمجتمع العثماني على الخصوص لأنه بنهايته انتهت ظواهر ارتبطت به ارتباطاً وثيقاً كما انتهى عهد الحجر على النساء⁽⁶⁷⁾ واعتبارهن مجرد بضاعة بشرية ثمينة.

الخاتمة:

في الختام، يمكن القول إن مفهوم الحريم هو مصطلح ضارب في عمق تاريخ الحضارة الإنسانية عموماً والإسلامية بشكل خاص، فقد اتخذ رموزاً ودلالات متعددة ارتبطت بما هو ديني وثقافي واجتماعي وسياسي.

حيث أن الحريم كمفهوم لغوي لا يطرح إشكالات عديدة، لكن الأهم هو الحريم كمفهوم اصطلاحى سواء لدى المسلمين أو الأجانب، بمعنى آخر كيف تمثل المسلمون الحريم وكيف تمثله الأجانب باعتباره ظاهرة غريبة عن مجتمعهم.

ونضيف أيضاً أن الحريم لم يكن فقط ظاهرة اجتماعية عابرة، بل كان عبارة عن مؤسسة لها نظامها وقوانينها المعروفة وأعدادها الغفيرة بقصور الحكام والسلاطين، حيث نجد أن هناك عوامل عديدة غذت نظام الحريم، وساهمت في ظهوره واستمراره، لدرجة أصبح الحريم خصوصاً السلطاني بمثابة ظاهرة خطيرة تهدد بانهيار دول وزوال امبراطوريات من خلال الدسائس والمكايد، وتدخل الحريم في الحياة السياسية لهذه الامبراطوريات. خصوصاً الدولة العثمانية،

يبدو أن هناك عوامل عديدة غذت نظام الحريم وساهمت في ظهوره ثم إلى استمراره، فإمكانية تعدد الزوجات وامتلاك الجوّاري أدى إلى خلق أماكن مخصصة لكل امرأة، كما أن كثرتهم تستدعي ضرورة حمايتهم من العالم الخارجي، فتم جلب رجال أقوياء، لكن أخصاء،

65- فاطمة المريني، ترجمة نهلة، بيضون، هل أنتم محصنون ضد الحريم؟، مرجع سابق، ص: 108.

66- نفسه، ص: 120.

67- نفسه، ص: 139.

لتوفير حماية كاملة ومضمونة، بالإضافة إلى توفير مكان آمن من خلال هندسة معمارية صارمة، لذلك فإن محاولة تفكيك العناصر المكونة لمؤسسة الحريم في المجتمعات الإسلامية ليس سهلاً خصوصاً عندما يرتبط بما هو ديني وثقافي وفكري للرجل العربي والمسلم.

المراجع والمصادر

i. القرآن الكريم

ii. المصادر والمراجع العربية

- 1- ابن قدامة، المغني، الجزء: 10.
- 2- أكمل الدين إحسان أوغلي، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ترجمة، صالح سعداوي، استانبول، 1999.
- 3- أيوب، أبودية، الحجاب في التاريخ، مراجعة لغوية، صفوان البخاري، دار الفارابي ط1، 2012.
- 4- باسمة كمال، تطور المرأة عبر التاريخ، مؤسسة عز الدين، 1981.
- 5- برنارد لويس، استنباط وحضارة الامبراطورية العثمانية، ترجمة: سيد رضوان علي، دار الكتب، بيروت، (د.ت).
- 6- توفيق بن عامر، الحضارة الإسلامية وتجارة الرقيق خلال القرنين 3 و 4هـ.
- 7- حسن الضيقة، الدولة العثمانية، الثقافة، والمجتمع، والسلطة، دار المنتخب العربي، الطبعة الأولى، 1997.
- 8- حسين العودات، المرأة العربية في الدين والسياسة، (عرض تاريخي) ط:1، 1996.
- 9- حنفي المحلاوي، حريم ملوك مصر من محمد علي إلى فاروق، دار الأمين، ط:1، 1993.
- 10- خليل، إينالجيك، تاريخ الدولة العثمانية، من النشوء إلى الانحدار، ترجمة، محمد. الأرنؤوط، دار المدار الإسلامي الطبعة الأولى، 2002.
- 11- سهام عبد الوهاب الفريح، الجواري والشعر في العصر العباسي الأول. شركة الربيعان للنشر والتوزيع. ط2. 1 – 1981.
- 12- صوفيا لين بول، حريم محمد علي باشا، رسائل من القاهرة (1842-1846)، ترجمة ودراسة: د. عزة كرامة، ط:2، 2000.
- 13- عبد السلام، الترماني، الزواج عند الغرب في الجاهلية والإسلام، دراسة مقارنة، في عالم المعرفة، أغسطس، 1984.
- 14- عبد العزيز محمد الشناوي، الدولة العثمانية دولة مفترى عليها، مكتبة الأنجلو المصرية، الجزء الأول سنة: 1980.
- 15- عبد الله ناصح علوان، نظام الرق في الإسلام، دار السلام، 2004.
- 16- فاطمة المرنيسي، الحريم السياسي، النبي والنساء، ترجمة عبد الهادي عباس، دار الحصاد، ط:2، 1993.

- 17- فاطمة المرنيسي، ترجمة نهلة، بيضون، هل أنتم محصنون ضد الحريم؟، نشر الفنك، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، 2000.
- 18- محمود سلام زناتي، النظم الاجتماعية والقانونية في المجتمعات البدائية والقبلية، وحقوق الإنسان في المجتمعات البدائية، الطبعة الثانية، القاهرة.
- 19- محمود سلام زناتي، قصة السفور والنقاب - واختلاط وانفصال الجنسين عند العرب، دار البستاني، 2002.
- 20- نزار، قازان، سلاطين بني عثمان بين قتال الإخوة وفتنة الإنكشارية، دار الفكر اللبناني، الطبعة الأولى، 1996.
- 21- هاملتون جيب، هارولد بوين، المجتمع الإسلامي والغرب وأثر الحضارة الغربية في الفكر الإسلامي في الشرق الأدنى، ترجمة، عبد المجيد حسيب القيسي، الجزء الأول، المجتمع الإسلامي في القرن الثامن عشر، دار المدى للثقافة والنشر، 1997.
- 22- ول ديورانت، قصة الحضارة، ج: 1 م: 1 الرق.

iii المراجع الأجنبية

- 1- AFETINAN, (A.), L'Emancipation de la femme Turque, Unesco, 1962.p.37.
- 2- Chardans, Jean-Louis, Les Harems, Pygmalion, Paris, 1979.
- 3- DURANT LA BARONNE, fontmagne de, un Séjour à l'embassade du France à Constantinople sous le second empire, Paris, 1902.
- 4- HANOUM, Leila, Le Harem impérial et les sultanes au XIX, traduit par RAZI (Y), Préf : de BASH (S), Bruxelles, ed. Complexe, 1991.
- 5- MONTAGU (M.W.), L'Islam au péril des femmes, une anglaise en Turquie au XVIIIesiècle, Introduction, traduction et notes de Marie MOULIN et Pierre CHUVIN, éditeur François MASIERO, la découverte, Paris, 1981.
- 6- OLIVIER, (G.A), Voyage dans l'empire ottoman, L'Egypte et la Perse, fait par ordre du gouvernement, pendant les six premières années de la République, Paris, (1801-1807).
- 7- PENZER, (N.M.), The Harem. An Account of the Institution as it Existed in the Palace of the Turkish Sultans with a History of the Grand Seraglio from its Foundation to the Present times, Philadelphia, 193.
- 8- RED. "Harem", in Encyclopédie de l'Islam, Nouvelle édition, T. III.

- 9- Annabelle D' HUART, Nadia TAZI, **Harems**, Hachette, 1980.p, 55.
10- THEVENOT, (J. **Relation d'un Voyage fait au Levant**, Barbin, Paris.

جميع الحقوق محفوظة © 2021، الدكتورة/ فاطمة الزهراء قديحي، المجلة الأكاديمية للأبحاث والنشر العلمي.

(CC BY NC)